أين يذهب الأزرق؟

صافرات القطارات تدوي من بعيد. عالية مزعجة كخلفية مُكملة تليق باليـوم. الزحام والأصوات المتداخلـة، والحقائب المنتشرة بطول الرؤية؛ بالكاد استطاع الحصول على منضدة في بوفيه المحطة المكتظ. منضدة صغيرة بجانب النافذة نصف المفتوحة المغبشة. اقترب بالكرسي من النافذة ليتمكن من رؤية المارين، والداخلين للبوفيه.

الجو حار، والمراوح المعلقة بالسـقف لا تحـرك حتى الهواء. ضجيج، وصياح، وبكاء هستيري حوله يأكل ما تبقى من روحه. يشعر بضغط دمه يرتفع. صداع يقبض على منتصف رأسـه وينـز بلزوجة على عينيه. يضع حقيبته الوحيدة بين قدميه جيدًا. يشعل سيجارة، وهو يواصل التطلع عبر النافذة. يفك أول أزرار قميصه، ويحاول التقاط أنفاسه بهدوء. يتطلع للساعة

الكبيرة المعلقة على الجدار جانبه. الوقت يمضي بسرعة جنونية، يحاول ألا يتوتر؛ لكن سرعة هز قدمه تزداد، دون أن يتمكن من إيقافها.

لمحها تأتي من بعيد، تهرول، يبدو عليها الفزع والتوتر، تحمل حقيبة على كتفها، وأخرى كبيرة تحاول أن تمر بها بين الزحام، هبّ من مكانه وأشار لها عبر الزجاج الداكن، تراه فتقترب من النافذة ليتناول منها حقائبها، وتتجه هي لباب البوفيه لتدخل. كانت شاحبة، شعرها متناثر حول رأسها، تحاول أن تعدله بكفيها المهتزتين.

حاولت الابتسام له لكنها لم تتمكن، ظلت صامتة بعدها وهي تُثبت نظرها في طرف المنضدة الصغيرة أمامها. تنظم أنفاسها كمحاولة لأن تهدأ. تناولتْ سيجارة من علبته وأشعلتها بيد مهتزة، تسحب نفسًا عميقًا وهي تحاول أن تهرب بعينيها من عينيه، شعر بثقل يزداد فوق صدره، مدّ يده ليربت على كفها فانتفضت بشدة. «آسف لم أقصد». تنظر له بعين دامعة. وهي تلتهم السيجارة بشراهة.

«أريني ماذا أعطوكِ»؛ رفعتْ كفَّها بتذكرةٍ صغيرةٍ مطويَّة. فتحتها، ليظهر لونها البرتقالي. وعلى الرغم من كل ما يشعر به إلا أنه ابتسم لها قائلًا «جيد. هذا جيد جدًّا»، شعر بفرحة تسري داخله، يبتسم لها بشحوب خمنتْ هي معناه.

«وأنتَ؟» بصوتها المرتعش الخائف تسأله. ترددتْ قبل أن تسأل كأنها لا تريد أن تعرف حقًّا. أخرج التذكرة من جيب قميصه العلوي. ظلَّ قابضًا عليها قليلًا قبل أن يفتحها أمامه، كانت زرقاء داكنة، كانتْ تتوقع

ما ستراه؛ وإن ظلَّتْ تأمل. شعرتْ بروحها تُسحب منها، شهقتْ وهي ترجع للوراء تاركةً دموعها لتنهمر فجأة. كان السواد ينتشر في مجال رؤيته، سحابةٌ داكنة تتصاعد من الأطراف لتأكل محيط رؤيته. لم يجد ما يقوله، ظلَّ ينظر للون أمامه والرؤية تُضبب أمام عينيه، لمح بالكاد الساعة المعلقة. ومدَّ يده الميتة ليمسك بكفِّها المرتعش.

«لا وقت. أرجوكِ». تحاول التوقف عن البكاء، وهي تشعل سيجارة جديدة. «البرتقالي جيد، جيد جدًّا. ستتحركين لمنطقة آمنة، لا ضرر، لا تخافي». كان صوته يخرج بصعوبة. جفاف شديد يغلِّف لسانه، ودقات قلبه تتسارع بشدَّة. الحروف تخرج منها متناثرةً، متآكلة. لم يفهم منها شيئًا، اقترب منها أكثر، وهو يقبض على كفِّها بين أصابعه بشدَّة: «لا تخافي، ولكن لا تعطيهم شيئًا، لا تسمحي لهم بأخذ أيِّ شيءٍ منك قبل الوصول».

«وأنت.. أنت ماذا ستفعل؟». «لا تقلقي. لا أحد يعلم أين يذهب الأزرق، ربما كان مكانًا جيدًا»، يحاول الابتسام وهو يتكلم إلا أن وجهه المتيبس فشل في هذا. كان يريد إشعال سيجارة أخرى؛ إلا أنه لم يتمكن. ظلَّ ممسكًا كفَّها، محاولًا السيطرة على ارتعاش جسده المجنون. «سأبقى معك»؛ بالكاد سمعها، وفهم ما تقول. هو يعلم أن هذا مستحيل، وهي تعلم، فهز رأسه نفيًا بشدَّة: «لا. ستركبين قطارك، لن يسمحوا لأحد بالبقاء. على الأقل أعلم لأين تتجهين، وهذا جيد». كانت دموعها تغرق وجهها وتتساقط عبر ذقنها الصغير. وجهها يشحب وينطفئ، صمتتْ كلُّ الأصوات في أذنيه، لم يعد يسمع أيَّ ضجيج، أو صياح؛ فقط صوت

تنفسها المتقطع، وحروفها المهشَّمة التي تتناثر منها. أراد أن يضمَّها بقَّوة. أن يحتضنهـا ويطمئنها؛ لكنَّه لم يتمكن من الحركـة، دوامة من ظلام تلفه وتبتلعـه داخلها. دوار، ورغبـة في القيء، ورغبة مميتـة في البكاء. إلا أنَّ دموعه ظلَّت معلَّقة في عينيه.

الصوت الآلي الرتيب يأتي عبر ميكروفون المحطة مزعجًا، مقبضًا: «على أصحـاب التذاكر البرتقالية فقط التوجـه لركوب القطار على رصيف 3. سيتحرك القطار في تمام العاشرة. على أصحاب التذاكر البرتقالية فقط التوجه لركوب القطار على رصيف 3. سيتحرك القطار في تمام العاشرة».

نظر للساعة أعلى الجدار فوجدها العاشرة إلا عشر دقائق. نفد الوقت منهما، وسترحل. ظلَّ ينظر لها دون أن يجد ما يُقال. كان الضجيج حولهما يتعالى ضجيجًـا مختلطًا بصياح وبكاء وعويل. هسـتيريا جنونية أصابت الجميع. أمسك يدَها وهمس: «لابدَّ أن تتحركي». لم تسمعه، لكنَّها فهمتْ ما يقول.

انتفضتْ مكانها فجأة والتفتت لتتشـبث بمن يجلس خلفها: «إلى أين يذهب الأزرق؟ أرجوك». يزيحها الرجل خلفها بعنف وهو ينظر للأمام دون أن يرد. يتعالى صوتها بشـدَّة: «ليخبرني أحد إلى أين يذهب الأزرق. أرجوكم». كان ينظر لها ولمحاولاتها المجنونة الأخيرة دون أن يفعل شيئًا. كأنما يشاهد مشهدًا من فيلم. صوتها يخرج متآكلًا عبر نشيجها المتصاعد.

ترى أحد الحراس الذين يملأون المكان يمرُّ أمام النافذة بالخارج. تهبُّ فجأة لتقفز عبرها، قبل أن يتمكن من منعها. يسـمعها تهتف به: «إلى أين

يذهب الأزرق؟ لتخبرني أرجوك». يمسكها من ذراعها بقسوة ويصيح: «لا شأن لكِ بهذا، الآن موعد اللون البرتقالي». تصرخ فيه بجنون: «لابدَّ أنَّك تعلم. أرجوك. لتخبرني أرجوك». يقفز هو عبر النافذة ليمسك بها من كتفيها ويسحبها بعيدًا عن الحارس الذي كان يتأهب لضربها بكعب سلاحه، يشدُّها بعيدًا ليلصق ظهرها بالحائط؛ وهو يلهث. كانت ترتجف، شحب وجهها تمامًا، وتناثر شعرها على رأسها وأمام وجهها.

يرى أحد الحراس بداخل البوفيه يسحب حقائبهم بعيدًا. لسانه يرفض الحركة والكلام. ينظر لعينيها الذابلة. والعالم من حوله يزداد ابتعادًا. يقترب منها ليهمس في أذنيها بخفوت دون أن تسمعه وهو يحتضنها داخله.

«النداء الأخير لأصحاب التذاكر البرتقالية. سيتحرك القطار بعد دقيقتين.. النداء الأخير لأصحاب التذاكر البرتقالية. سيتحرك القطار بعد دقيقتين».

يمسك بيدها الصغيرة ويسحبها خلفه دون مقاومة، لا يشعر بها كأنها تحولت لطيف. يتجه للقطار المتوقف على الرصيف 3. ينظر لكفِّها الآخر ليرى التذكرة المكرمشة بين أصابعها. يتخطيان الزحام والضجيج، ليصلا لآخر عربة بالقطار. الجنود يسدُّون آخر الرصيف، والصياح المجنون حوله يتعالى. يتوقف معها أمام الباب الأخير المزدحم. يبتسم أخيرًا شبه ابتسامة وهو يحتضنها ثانية. يهمس لها ببطء في أذنها مرَّةً أخرى -قبل أن يدفعَها عبر باب القطار المتحرك- بما قاله لها منذ قليل: «اللون الأزرق يذهب للسماء».